تحية إلى فيليتسيا لانغر

عدنان جابر*

فيليتسيا لانغر و"الحساسية الإنسانية"

في سنة ١٩٧٥ في مدخل سجن نابلس، رأيت المحامية فيليتسيا لانغر. عرّفتها بنفسي وقلت: اسمي عدنان جابر. قالت ضاحكة: "لكن عدنان جابر كبير." قلت لها: "أنا عدنان جابر الصغير، من الخليل، وابن عمي عدنان مثقال جابر، من بيت لحم، أكبر مني."

وبالمناسبة، من حين إلى آخر أواجه مشكلة في الأسماء، فأضطر إلى توضيح نفسي حين يسألني كثيرون، وكانت المحامية منهم، ولهذا أعدت عليها تعريفي بنفسي: أنا، عدنان حافظ جابر، من الخليل، بعض زملائي الأسرى ينعتوني بـ "عدنان السيخ"، لأني طعنت ثلاثة جنود إسرائيليين بسيخ كباب صنعته في مدرسة الأمير محمد الإعدادية المهنية، أمام الحرم الإبراهيمي في الخليل في ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٩ حين كان عمري ١٧ عاماً، وأُصبت برصاص الحاكم العسكري أبراهام عوفر وجنوده في رقبتي وقدمي. وقضيت في الأسر ٧ أعوام ونصف عام، ثم جرى إبعادي.

وأضفت مستدركاً ومداعباً: أنا من "تنظيم السيخ"، سيخ فلسطين، وليس "سيخ الهند"! وهذا التنظيم يتميز ببنية تنظيمية بسيطة: مؤسِّسه واحد، والمخطط واحد، والمنفذ واحد! ثم انتميت إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، على يد ربحي حداد (أبو رامز) من نابلس جبل النار، الذي علمني الفلسفة في سجن عسقلان في سنة ١٩٧٠، واستشهد في سنة ٢٠٠٢ في البلدة القديمة في نابلس في أثناء الغزو الإسرائيلي، ثم استقلت من الجبهة الشعبية، وأنا منذ أعوام من "تنظيم الإنسان وفلسطين"، الإنسان في كل مكان، وفلسطين التي سماؤها أكبر من قمصان الفصائل.

أمّا عدنان جابر محمود جابر، فهو قائد الخلية التي نفذت عملية الدبويا "بيت هداسا" الشهيرة في الخليل في سنة ١٩٨٠، والتي قام بها القطاع الغربي لحركة "فتح". اسمه الحركي "عدنان"، من قرية تياسير قضاء جنين.

* كاتب فلسطيني؛ أسير سابق ومبعد؛ حاصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة، ومقيم في فرنسا.

والثالث هو عدنان مثقال جابر، من بيت لحم، قريب لي، وهو من أوائل الأسرى في سجون الاحتلال الصهيوني، ورحل عن عالمنا قبل عامَين.

حين أوضحت لفيليتسيا لانغر داخل بوابة سجن نابلس، مَن أنا، ومَن الذين تعرفهم باسم عدنان، كانت بشوشة وحيوية.

في ذلك اليوم وبعد ذلك، من متابعتي لنشاطها وندواتها ومواقفها وقراءتي لكتبها، أحسست بأنها محامية لا تقوم بواجبها بشكل بارد، أو من أجل التكسب المالي من الأسرى وذويهم، بل هي امرأة لطيفة دافئة، ملتزمة بقضية الإنسان، تحارب الاحتلال والظلم، وتنحاز إلى الحقيقة والحرية والعدل؛ امرأة ذات حساسية إنسانية.

تلك هي المسألة: "الحساسية الإنسانية". الصفة التي تجعلك لا تشيح بوجهك ومواقفك عن ضحايا القمع والاحتلال والطغيان والاعتقال والتعذيب والقتل. لا تجعلك تقول: "المهم أنا، ومن بعدي الطوفان"، لا تكون محايداً تمارس "التطنيش"، وتنأى بنفسك عن الواجب الإنساني الأخلاقي، فتخرس وتجبن أمام الظلم والطغيان، أو تبرر وتزيّن جرائم الطغاة والمحتلين.

ولأنها انحازت إلى "الحساسية الإنسانية"، نالت لانغر كراهية المحتلين الصهيونيين والمتطرفين اليهود، وتلقت التهديدات منهم. وكانت دوماً، على استعداد للمواجهة: مواجهة سلطات الاحتلال، والقضاء، واليهود الصهيونيين، فرافعت ببسالة عن المناضلين والفدائيين الفلسطينيين، وفضحت عنصرية الاحتلال وغطرسته، وكتبت مؤلفات عن الاحتلال والفلسطينيين. وإذا كان غلاة الصهيونيين يعتبرون أنه كلما كانوا أكثر كراهية إزاء الفلسطينيين كانوا أكثر إخلاصاً لإسرائيل والصهيونية، فإن فيليتسيا لانغر اتخذت تجاه الفلسطينيين موقفاً نقيضاً مغايراً: "هؤلاء إخواني".

لقد خبرت لانغر ماهية القضاء الإسرائيلي، وتعسّف المحاكم الإسرائيلية وقراراتها المبنية على المواقف المسبقة والامتثال للأجهزة الأمنية الإسرائيلية. وأخيراً "كفرت" لانغر بزيف القضاء الإسرائيلي وظلمه، فقررت مغادرة الكيان الصهيوني لتقيم في ألمانيا، فتعمل هناك وتحاضر وتنشط وتؤلف وتمارس قناعاتها الشخصية الفكرية والإنسانية.

أبدت القوى المتحضرة والإنسانية والديمقراطية في العالم احترامها لفيليتسيا لانغر ولمواقفها ومسيرتها، فنالت العديد من الجوائز منها "جائزة برونو كرايسكي لحقوق الإنسان".

أكثر مَن أحب فيليتسيا لانغر هم الفلسطينيون، وكانوا ينادونها تحبباً "الحاجة فولا".

لم تكن فولا تدافع فقط عن الأسرى والأسيرات في المحاكم الإسرائيلية، بل كانت تزورهم في السجون، وتلتقي بأهاليهم. وقد ألّفت عن الشعب الفلسطيني ومعاناته وقضيته العديد من الكتب، ونُفّذ مسلسل تلفزيوني استناداً إلى كتابها "بأم عيني"، كتب لازمته الشاعر الجميل الراحل أحمد دحبور:

يا شعبي يا عود الندِّ
يا أغلى من روحي عندي
إنّا ماضون على العهدِ■